التلوث البيئي في مدينة بغداد "دراسة أنثروبولوجية"

الباحث محمد باقر ناصر كاظم **أ.م.د. حسين فاضل سلمان**

جامعة بغداد/ كلية الآداب/ قسم علم الاجتماع **جامعة بغداد/ كلية الآداب/ قسم علم الاجتماع**

mohammedbrnaser@gmail.com dr.hussain.f.salman@gmail.com

(مُلَخَّصُ البَحث)

إن التلوث البيئي مشكلة مستعصية عند أغلب المجتمعات، لاسيما تلك المنعوتة بدول العالم الثالث، ولأننا نعيش في مجتمع مأزوم نجد أن التلوث البيئي مشكلة غاية في التعقيد تتداخل في إيجادها مجموعة من المحركات السوسيوثقافية. ويمثل المكان خاصية مهمة في الثقافة العراقية، وهو مسؤول مباشر عن تدخلهم في إذكاء التلوث من عدمه، كما تشكل الحواس الخمسة خصوصية المجتمع أو الثقافة بالتعامل مع الوساخة والتلوث بشتى أنواعه.

الكلمات المفتاحية: التلوث، البيئة، الوساخة، مدينة بغداد

المقدمة

تشكل ظاهرة التلوث البيئي في العاصمة بغداد تهديداً لمكانتها وتأريخها، وما نركز جهدنا عليه في هذا البحث المصغر هو ظاهرة انتشار النفايات، إذ غدت النفايات في كل زاوية من شوارع بغداد، لكن المشكلة الحقيقية تكمن في إسهام الإنسان الرئيس بتعاظم هذه الظاهرة، فليست هي المؤسسات المعنية وحدها تتكفل انتشال الظاهرة من الوجود الحسي، وإننا لا نضمن أيضاً نزاهة هذه المؤسسات وتفانيها في العمل، بل نؤكد أن هناك تقصيراً مؤسسياً ومجتمعياً.

ما يهمنا في هذا البحث المصغر أن نسلط الضوء على تفاعل الانسان اليومي مع المكان عبر مفاهيم النظافة والوساخة، مكترثين لصورة هامة لطالما غابت عن معظم الباحثين، وسنتناول في بعض صفحات هذا البحث أثر النظافة على تشويه بعض الملامح الرئيسة للشوارع والأزقة، فضلاً عن أننا سنتطرق لمشكلة النزعة الفردية اللاأبالية، وسوء التدبير الحكومي المؤسسي في انتشال ظاهرة خطيرة بالمجتمع العراقي، إضافة إلى ضعف معرفة الأفراد بحقوقهم وواجباتهم تجاه الوطن.

بشكل عام يمثل التلوث البيئي ظاهرة عالمية، لكن شكله وتأثيره يختلف بين مجتمع ومجتمع آخر، وبين ثقافة وثقافة أخرى، وما تمثله هذه الظاهرة في المجتمع العراقي من تشوه عمراني كبير يجب أن يلقي بظلاله على واقع البحوث العراقية، إذ إن الاهتمام بهذا القطاع الخطير يجب أن يحل مشكلة كبيرة تشوه المدنية في العراق وفي العاصمة العراقية بغداد.

المحور الأول– رمزية المكان :

يشير الرمز إلى الموضوع أو الشيء المشار إليه على أساس من قانون أو قاعدة أو عادة أو اتفاق أو ارتباط في التصورات والأفكار على أنه يعني ذلك الشيء (الأسود، الأنثروبولوجيا الرمزية "دراسة نقدية مقارنة للاتجاهات الحديثة في فهم الثقافة وتأويلها"،٢٠٠٢، صفحة ٣٧)، أي أنه يعني كل شيء يدل على شيء آخر. ويعني عنواننا (رمزية المكان) أنه يشتمل على اختلاف التوجهات المعرفية حول المكان بين إنسان وإنسان آخر، أي بين ثقافة وثقافة أخرى، فللمكان أهمية في عملية التواصل الحسي؛ إذ تختلف عملية التواصل هذه بين مكان وآخر.

ووجدنا في الدراسة الميدانية أن المكان عادة ما يعامل معاملة التملك، كالبيت والمول (المركز التجاري) و المحال التجارية والجامعات والمعاهد، إذ تعمل رمزية المكان على إذكاء التناشز السلوكي، حيث يتساهل المبحوثون في رمي النفايات بالمرافق غير المملوكة لشخص، أو أنها تقبع تحت سلطة الدولة، كالشوارع، الأماكن العامة، المؤسسات الحكومية، الجامعات، وغيرها، لكنهم يفعلون العكس غالباً في الأماكن المملوكة لأشخاص بعينهم، كالمنازل، المراكز التجارية، المحال التجارية، وغيرها، وقد يسأل سائل لماذا هذا التناشز الحاد في السلوك؟

ويعاني الفرد العراقي من صراع أزلي بينه وبين السلطة الحاكمة، هذا الصراع يتجدد دائماً، يجعله غير قادر على القبول بالتأويل الذي يمزج بين ملكية الدولة وملكية الشعب أو الملكية العامة، فالعراقي وكأنه يأخذ بثأره الشخصي حينما يصدر فوضاه عن طريق رمي النفايات من نوافذ السيارات، وفي زوايا الشوارع.

وفي حديث مقتضب مع أحد المبحوثين الذين قاموا برمي النفايات من نافذة الباص كنت قد وبخته لرميه النفايات أكد لي أن وزارة الصحة هي أوسخ الأماكن، المستشفيات ليس فيها قطرة دواء، وبدأ يسرد لي العديد من القصص التي يشتم فيها المتنفذين بالسلطة، فلم يرغب أن يعترف بأنه مذنب، حتى أن ما فعله من رمي للنفايات لم يثر غضب الحاضرين الذين شاهدوه، هذا ما يدلل على أن الثقافة العراقية تعمل وفق مبدأ اللامبالاة.

الغريب في الأمر أن النفايات لا ترمى في المنازل كما في الشوارع، ولا في المولات التجارية، ولا في أماكن يمتلكها أشخاص، مع بعض الحالات الشاذة الخارجة عن القاعدة، هذا يدل على أن رمزية المكان لا تحمل مخاضاً ثأرياً يبيح إفشاء الفوضى.

وفق المبدأ الثأري من الدولة والحكومة لا يشعر الفرد بالانتماء للأرض، ويعمل على أساس الفردية واللاأبالية، إذ إنه لا يعرف أيضاً حقوقه في هذا البلد من واجباته. والمكان أنثروبولوجيا هو ذلك الحيز الذي يشغله السكان الأصليون ويعيشون ويعملون فيه، ويدافعون

عنه، ويحددون نقاط قوته، ويراقبون حدوده، وكذلك يرصدون فيه آثار قوى الآلهة الأرضية أو السماوية، وآثار الأسلاف أو الأرواح التي تسكنه وتحيي جغرافيته الحميمة، كما لو أن بقعة الإنسانية الصغيرة التي تقدم لهم في هذا المكان القرابين والأضاحي تشكل الوقت ذاته الجوهر، كما لو أنه لا توجد إنسانية جديرة بهذا الاسم إلا في مكان التعبد المكرس لهم (أوجيه، ٢٠١٨، صفحة ٤٧)، فمن الغريب أن نلحظ فتور العلاقة بين الإنسان والمكان في سياق النضافة والوساخة، إلأ أننا نعتقد أن هناك لغزاً آخر امتزج مع ضعف الانتماء المنبعث من القضية الثأرية، هو اللغز الحسي.

المحور الثاني- التفاعل الحسي مع المكان :

ويعني ذلك تفاعل حواس الإنسان مع المكان، والتفاعل الحسي يجري هنا بانتقائية، إذ يتم التفاعل اليومي مع الوساخة والنضافة على أساس حواس البصر، الشم، واللمس، إلا أننا وجدنا أن الإنسان العراقي مهتم كثيراً لحاسة (الشم)، وهو حساس لدرجة كبيرة في شم الروائح الكريهة، فيما تعمل حاسة (البصر) مجوزاً لقرارات حاسة (الشم) الطاردة، فحاسة (البصر) التي اعتادت على رؤية الأزبال في الشوارع، لا يمكنها الاكتراث لمنظر الأزبال المتراكمة أو المتناثرة في الشوارع، حتى أصبح رمي النفايات شيئ اعتادت عليه الثقافة، وأصبح جزءا من السلوك اليومي للفرد العراقي.

وعندما يلامس العراقي رذاذ التراب بأطراف جسده (الأرجل واليدين) لا يشكل ذلك بالنسبة له انزعاجاً، بل يكون استقبال ذلك وفق مبدأ الاعتياد، في سياق الجلوس والمشي، فمفهوم النضافة بالنسبة له عبارة عن تفاعل حسي خاص، أي أن الحاسة الوحيدة التي تتأثر بمسألة النضافة والوساخة هي حاسة الشم، وهذا لا يعني أنها (حاسة الشم) لا تخضع لقانون الاعتياد لكن بدرجة أوطأ من البصر واللمس، إلا أن الحواس بنسقها الطبيعي تخضع لردة الفعل الثقافية، وردة الفعل الثقافية هي من تشكل السلوك الحسي الذي يتفاعل من خلاله الانسان مع المكان.

<u>النتائج:</u>

١- للمكان دور رئيس في ازدياد التلوث البيئي من عدمه.

٢- صراع بين السلطة الحاكمة والإنسان العراقي، انعكس على رمي النفايات في أمكنة من عدمها، إذ يرمي العراقيون نفاياتهم في الأمكنة العامة والتابعة للدولة، في حين يحرصون على نظافة ممتلكاتهم الخاصة، كالمنازل والمرافق الخاصة الأخرى.

٣- لقيمة الثأر دور مهم في بلورة السلوك العراقي، تمثل ذلك برمي النفايات وعدم الاكتراث للأمكنة المملوكة للدولة، بالتزامن مع غياب مفهومات الملكية العامة أو ملك الشعب.

٤- للحواس دور مهم في معرفة النمط العراقي بممارسة التلوث من عدمه.

٥- تشغل ثلاث حواس حيزاً رئيساً في نسقية التفاعل مع البيئة، هي: (البصر، السمع، والشم).

٦- تمثل حاسة الشم أكثر الحواس تأثراً في ممارستي النظافة والوساخة، مع غياب شبه مطلق لحاستي البصر واللمس.

التوصيات:

١- تجسير العلاقة بين النظام الحاكم والإنسان العراقي، عبر توفير متطلباته وتحقيق العدالة الاجتماعية.

٢- كتابة برنامج توعوي موجه للإنسان العراقي، تكون مهمته تغيير الأنماط الحالية.

المصادر :

١- السيد حافظ الأسود، الأنثروبولوجيا الرمزية (دراسة نقدية مقارنة للاتجاهات الحديثة في فهم الثقافة وتأويلها)، دار المعارف للنشر، الاسكندرية، ٢٠٠٢.

٢- مارك أوجيه، اللاأمكنة (مدخل إلى أنثروبولوجيا الحداثة)، ترجمة ميساء السيوفي، هيئة البحرين للثقافة والآثار، ط١، ٢٠١٨.

References:

1- Al-Saied Hafiz Al Aswad, Symbolic Anthropology (A modern Critical Study for Understanding and Interpreting Culture), Al-Maaref publisher, Alexandria, 2002.

2- Mark Oger, Nowhere (Introduction to Modern Anthropology), Translated by Maysa Al-Siofi, Bahrain Authority for Culture and Aniquities, Vol1, 2018.

Environmental Pollution in Baghdad
"Anthropological research"

Abstract:

Environmental pollution is an intractable problem for most societies, especially those that are attributed to third world countries, and because we live in a crisis society we find that environmental pollution is an extremely complex problem, and it happens by sociocultural components.

The place is so important in Iraqi culture, and it's responsible for making or not making pollution, and the five senses constitute the privacy of society or culture by dealing with dirt and pollution.